فيضان النيل وأثره فى الحضارة المصرية

قال هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد إن مصر هبة النيل . ولعله كان يقصد بعبارة أدق أن تربة مصر هبة فيضان النيل . ذلك أن مصر بحياتها الزراعية وحضارتها المستقرة وتاريخها الذى لمس معالمه هيرودوت عندما زار أرضها وكتب عنها فصوله المعروفة ، لم تكن كلها مجرد هبة من هبات النهر أو هبات الطبيعة ؛ وكل ما فعله النيل أنه مهد السبيل وأعد المكان ، فجاء المصريون واستغلوا ظروف بيئتهم استغلالا ، وأنشأوا حضارتهم فى واديهم إنشاءً ؛ بل هذّبوا النهر وتحكموا فى جريانه حتى أصبح نهراً مصوباً مقوماً ، لا يفيض على غير هدى ، ولا يجرى فى غير حدود مرسومة . وكانت ظاهرة الفيضان بالذات أول ما اتجه المصريون إلى تهذيبه من تصرفات هذا النهر الذى أخرجته الطبيعة أول ما أخرجته جامحاً فى تدفقه ، جارفاً فى جريانه ، ثم جاء الإنسان فوجّه انصراف مياهه ، وهذب اندفاع فيضانه ، فأقام له الجسور ، وأعدّ له الحياض ، وحفر الترع والمصارف والقنوات ، ورد النهر بذلك كله إلى شىء من الهدوء الموزون ، والاتزان المحكم ؛ ثم أخرجه آخر الأمر نهراً رشيداً فى قوته ، سديداً فى اندفاعه ، قد جمع إلى قوة التيار وتدفقه انتظام المجرى وضبطه ، بل جمع إلى اندفاع الطبيعة وجموحها حكمة العقل البشرى وصوابه . وهكذا جاءت حياة المصريين وحضارتهم على ضفاف هذا النهر العظيم نتيجة لتفاعل منتج بين سخاء الطبيعة وقوتها ، وبين دهاء الإنسان وحيلته . . . وبقى ازدهار الحضارة فى مصر على مر العصور صورة صادقة لتوازن هذا التفاعل بين النيل والإنسان : النيل يأتى جامحاً فى كل سنة ، يسعى لأن يكسر جسوره ويطوّف بجنباته ، يغرق الأرض ويأتى على كل شىء فى غير نظام ؛ والإنسان يشفق من هذه الطبيعة الطاغية ، ولكنه لا ييأس من رحمتها الباقية ، فهو يرسم خطته ، ويقيم الجسور ويحفر القنوات ، ويحاول دائماً أن يرد إلى الطبيعة

شيئا من النظام ، وأن يفيء على النهر شيئاً من الاتساق ، حتى تمر الأزمة ويعود إلى الطبيعة والنهر هدوءها المعهود . . . ثم تتكرر القصة فى كل عام : سخاء جامح صاخب من ناحية الطبيعة ، وجهاد مطّرد دائب من ناحية الإنسان ؛ لا الطبيعة تغير من شيمتها ، ولا الإنسان يقطع من أمله . . . وأغلب الظن أن الأمر سيبقى كذلك ما بقى هناك نيل يجرى ويفيض ، وما بقى هناك مصريون يقيمون على ضفافه ويفلحون أراضيه .

ولكن ظاهرة الفيضان تستحق الدراسة أكثر من هذه الملاحظة العابرة ؛ وكلما أنعمنا فيها النظر ازددنا تفهماً للحياة المصرية وكشفاً عن بعض أسرارها . ذلك أن المغالبة بين الطبيعة والإنسان فى مصر لم تبلغ فى يوم من الأيام حد المصارعة والإفناء ؛ فقد جمعت الطبيعة فى مصر بين القسوة والرحمة . وقد استطاع الإنسان منذ فجر التاريخ أن يهتدى إلى ضبط النيل ، وأن يتحايل على الفيضان فى صورة من الصور ؛ واستعان فى جهاده بالعلم والتجربة على حد سواء ؛ وكانت الطبيعة كما سنرى بعد قليل معواناً له فى جهاده ، فتحكّم فيها ، وسخّرها لصالحه بعد عناء قليل او كثير . ولعل هذا هو السر الأول فى أن نتيجة المغالبة بين الطبيعة والإنسان فى مصر كانت على الدوام فى صالح الحياة والمدنية . وحتى فى السنوات التى كان فيها الفيضان يغلب حيلة الإنسان ، فيطغى على الأرض طغياناً يفوق التقدير ، كانت الحياة تتأخر مؤقتاً ، وكانت مرافقها تعطل ولكن لتعود إلى التجدد بعد هبوط الفيضان الذى يجدد الخصب بما يعوض كل بوار ، والذى يعد أرض مصر الطيبة لتؤتى أكلها مضاعفاً فى الموسم الجديد .

ومع هذا فظاهرة الفيضان ليست من البساطة بما قد نتصور ؛ ولا بد لفهمها وإدراك آثارها الظاهرة والخفية من أن ندرس النهر فى جملته . فنهر النيل يمتاز على غيره من أنهار العالم الكبرى بأمرين أساسيين ؛ أثر كل منهما فى حياة سكانه تأثيراً بليغاً ، لم يزده الزمن إلا وضوحاً وتمييزاً . وأول هذين الأمرين أن نهر النيل من أكبر أنهار العالم ؛ فهو يزيد فى الطول على ستة آلاف كيلومتر ؛ وقد تضارعه فى ذلك أنهار قليلة كالمسسيبى أو الأمزون ، ولكن المهم أن النيل يقطع تلك المسافة كلها فى اتجاه عام واحد من الجنوب إلى الشمال ، ويصل ما بين خط عرض ٣° جنوب خط الاستواء وخط عرض ٣١° شماله ،

أى إنه يخترق أربعاً وثلاثين درجة من درجات العرض أو تزيد . وليس بين أنهار العالم إطلاقاً نهر يجمع بين مثل هذه العروض المتباعدة ؛ فالمسسيبي ينبع ويصب بين عشرين درجة تقع كلها فى المنطقة المعتدلة ؛ والأمزون وروافده المتباعدة تنبع وتصب بين أربع وعشرين تقع كلها فى المنطقة الحارة ؛ على حين يجمع النيل بين المنطقة الاستوائية المرتفعة والجهات الاستوائية المنخفضة والمنطقة الحبشية الموسمية وسهول السودان وصحارى إفريقية الحارة وسواحل البحر المتوسط ؛ وقد ربط هذا النهر العظيم بين تلك المناطق المتباعدة وسكانها وحضاراتهم منذ أقدم العصور ، وجعل حياة فريق منهم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأحوال الجغرافية السائدة فى أرض فريق آخر يبعد عنه آلاف الكيلومترات ؛ فأهل مصر مثلا إذ يتأثرون بفيضان النهر فى أواخر الصيف إنما يتأثرون فى الواقع بأحوال المناخ وتساقط الأمطار على جبال الحبشة ومرتفعاتها ، حيث يعيش شعب آخر ربطهم به نهر النيل ؛ وهم إذ يزرعون زراعاتهم الصيفية بعد أن أدخل نظام الرى الدائم إلى حقولهم إنما يتأثرون بموارد المياه الصيفية التى تأتيهم من أمطار الهضبة الاستوائية ، وينساب بها النهر من بحيرات تلك البلاد النائية مارًّا بأرض السودان . فالنيل إذن نهر عظيم يقرّب البعيد ويجمع أطرافه بعضها إلى بعض . ولا بد لمن يريد أن يدرس الحياة فى أدانيه وأن يستجلى مقوماتها من موارد الماء ومصادر التربة وتعاقب الفيضان والجفاف وغير ذلك . . . لا بد له من أن يوسع مجال دراسته بعيداً عن أرض مصر بحدودها السياسية الضيقة .

وثانى هذين الأمرين اللذين يمتاز بهما النيل على غيره من الأنهار أنه على عظمته التاريخية ، ورغم أنه كان مهداً لحضارة هى أقدم الحضارات التاريخية ، فإنه يعتبر حديثاً جدًّا من حيث تكوينه الجيولوجى ، بل إنه ربما كان أحدث أنهار العالم الكبرى على الإطلاق ؛ فهو فى صورته الحالية لا يمتد إلى أبعد من النصف الثانى لآخر الأعصر الجيولوجية (البلايستوسين) ؛ أو هو إن شئت التبسيط لا يزيد فى عمره وصورته الحالية عن بضعة عشر ألف سنة ، وإن زاد عن ذلك فلن يبلغ بضع عشرات قليلة من آلاف السنين ؛ وهى فترة لا تقاس بالأعمار الجيولوجية لبعض الأنهار التى قد تبلغ مليون عام أو تزيد . ومن المعروف أن النيل قبل أن يتخذ صورته الحالية كان موجوداً ، ولكن على شكل ثلاث

مجموعات نهرية تستقل كل منها عن المجموعتين الأخريين تمام الاستقلال . فأما المجموعة الأولى فتتمثل فى النوبة ومصر حيث كان النهر يجرى معتمداً على الأمطار المحلية التى تسيل بها الروافد من الصحارى المجاورة ، لا سيما الصحراء الشرقية وتلال البحر الأحمر . وفى هذه المرحلة حفر النيل مجراه فى النوبة ومصر . ثم مهد ذلك المجرى وملأ قاعه وبعض جوانبه بالرواسب الرملية التى جلبتها الأمطار القديمة من تلال البحر الأحمر إبان ما يعرف بالعصر المطير ، عندما كانت صحارى مصر أقل جفافاً منها فى الوقت الحاضر .

وأما المجموعة الثانية فأنهار الحبشة . وهذه يقال إنها كانت تنصرف إلى البحر الأحمر ؛ ولم تكن مياهها ولاطميها لتنصرف إلى سهول السودان أو أرض مصر ، حتى أذن الله فانتابت هضبة الحبشة اضطرابات أرضية أدت إلى ارتفاع حافتها الشرقية والجنوبية ارتفاعاً أدى إلى انحدار سطحها نحو الشمال الغربى ، فانصرفت مياهها فى ذلك الاتجاه ، أى نحو أرض الجزيرة ووسط السودان وشماله . وقد أنفقت تلك المياه فترة من الزمن فى ردم سهول السودان بالغرين الحبشى ، كما حدث فى أرض الجزيرة بالذات ؛ حتى إذا ما مهدت الأنهار مجاريها وملأت ما اعترضها من حياض ومنخفضات استطاعت أن تصل آخر الأمر إلى النوبة ومصر ، فجرت مياهها فى مجرى النيل القديم هناك .

وكذلك الحال فى منابع النيل الاستوائية ؛ فقد كانت مستقلة قائمة بذاتها ، حتى اهتزت الهضبة الاستوائية وتأثرت بنفس الحركات التى أثرت فى هضبة الحبشة ، فاندفعت مياه البحيرات الاستوائية نحو حوض الجبل والغزال ، واستطاعت آخر الأمر أن تجرى فى النيل الأبيض وتتحد بمياه الحبشة وتصل إلى مصر . وكان هذا إيذاناً بأن يتخذ النيل صورته الحالية .

فالنيل إذن لم يكن نهراً موحداً منذ البداءة ؛ وإنما كانت منابعه الحبشية والاستوائية منفصلة عن أدانيه فى النوبة ومصر . وهذه الحقيقة التى أجملناها إجمالاً قد جهد الجيولوچيون والجغرافيون فى إثباتها سنين كثيرة ، ولكنها صارت الآن مقبولة بصفة عامة ، لا يجادل فيها الباحثون إلا فيما يمس التفاصيل . والواقع أننا لا نستطيع أن نتفهم كثيراً من نواحى التاريخ المصرى بعد ذلك بغير الرجوع إلى هذه الحقيقة الچيولوچية البسيطة ، وهى أن النيل فى جزئه الأدنى فى مصر بدأ مستقلا ، واستطاع أن يردم قاع واديه ببطانة من الرمل

والحصى الذى يصرف المياه الجوفية بسهولة . ثم تلا ذلك وصول مياه الحبشة وغرينها فكسا الرمال والحصباء بطبقة جديدة من الطين الناعم الأسود الذي يكوّن التربة المصرية المعروفة ، والتى لا يزيد سمكها عن اثنى عشر متراً أو أكثر قليلا ، يقدر بعضهم بصفة عامة أنها إن كانت قد أرسبت فى الماضى بمعدل مليمتر واحد ، فإن عمرها لا يمكن أن يزيد كثيراً عن اثنى عشر ألف عام . وإلى هذه الطبقة يضيف الفيضان والنيل فى الوقت الحاضر مليمتراً واحداً فى كل سنة ، يجدد به خصب الأرض ويعوضها عن بعض ما فقدته فى تغذية الزرع والنبات . والشئ المهم ، والذى قد يبدو غريباً عند أول نظرة ، أن طبقة الرمل السفلية قد تكونت أيام كانت الصحارى المصرية أكثر مطراً منها الآن ، وأنه عند انتهاء العصر المطير فى مصر كان من الواجب أن يجف نهر النيل ، وألا يختلف فى مصيره عن بقية الأودية الجافة فى صحارى مصر كوادى قنا أو وادى حوف أو غيرهما من الأودية التى يسميها عربان الصحراء الآن « وادى بلا ماء » . ولكن الموقف أنقذ بوصول مياه الحبشة والمنابع الاستوائية ؛ ولولا ذلك ما استطاع النيل أن يستمر كنهر يجرى بالماء ، ولا استطاع الإنسان أن يستقر فى واديه ، ولا أن ينشئ فيه حضارته الزراعية المستقرة التى تقوم على استنبات النبات واستئناس الحيوان . ففيضان النيل من منابعه الجديدة إذن كان مصدر الحياة الجديدة فى مصر ، بسببه اتصلت ، وعليه اعتمدت ، ومنه تغذت وأينعت ، حتى ظهرت المدنية المصرية ولاح فجر التاريخ .

ولكن حكمة الخليقة فى مصر أبلغ من ذلك ، وقصة الحياة فى وادى النيل الأدنى أعجب وأروع مما أجملنا . فقد ترتب على وصول مياه الفيضان الحبشى بعد انقضاء العصر المطير فى مصر لا فى إبانه . . . ترتب على ذلك من النتائج ما تغير له وجه التاريخ فيما بعد . فالمعروف الآن أن طبقة الرمل السفلية تصرف جانباً كبيراً من مياه النيل إبان الفيضان ؛ فهى تتشرب الماء وتغوص به إلى جوف الأرض ثم تنتهى به إلى البحر كما تنتهى المصفاة بما يصب فوقها من ماء . ولو أننا تصورنا أن مياه الحبشة وغرينها كانت قد وصلت أرض مصر إبان العصر المطير وأثناء تكوّن طبقة الرمل ، ما أمكن لتلك الطبقة أن تحتفظ بطبيعتها الرملية الخالصة ، بل لاحتوت بين طياتها بعض طبقات من الغرين الناعم الذى لا يصرف المياه كما تصرفها الرمال والحصباء ، ولترتب على ذلك أن صارت

الطبقات السفلى من أرض مصر غير مساميّة ولا صالحة لتصريف المياه الجوفية كما تصرفها الآن . ومعنى هذا أن مياه الفيضان الحبشى الغزير والذى يعم قاع الوادى حتى يصل حافة الصحراء لا تستطيع أن تنصرف بسهولة فى جوف الأرض ، فتبقى على السطح مدة أطول مما تفعل الآن ، ويساعد ذلك على تكوّن المستنقعات وانتشار الماء الآسن فى جنبات الوادى ؛ وليس ذلك مما يعين على أن يصبح الوادى صالحاً للحياة الصحية والمعيشة المستقرة والزراعة النامية . بل إننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقول إنه لو كانت الصلة قد تمت بين النيل الحبشى والنيل المصرى قبل الوقت الذى حدثت فيه ، لترتب على ذلك تأخير خطير فى نشأة المدنية المصرية ، ولاتخذت حياة مصر الزراعية وحضارتها التاريخية طابعاً آخر غير الذى اتخذته ، ولكانت أهوال الفيضان الحبشى وأخطاره أعظم كثيراً مما حدث أو يحدث الآن بالفعل ، ولما استطاعت تربة مصر أن تتخلص مما يخلفه ذلك الفيضان السنوى من مستنقعات ومياه راكدة وغير ذلك . . . فكأن يد الله إذ فرقت أول الأمر بين طرفى النيل فى مصر والحبشة ، وأخرت اتصال هذين الطرفين قد قدمت بذلك نشأة المدنية ، ومكّنت لأبناء النيل فى العهود اللاحقة من أن يغالبوا الطبيعة وأن ينشئوا مدنيتهم الزراعية فى أنسب الظروف . . . ولعلنا إنما نتحدث بنعمة الله ونكشف عن إبداع الخليقة إذ نسجل أننا لا نزال نعيش فى بركة هذا التتابع المتسق فى أطوار الخلق الجيولوجى ، وأن قصة تطور نهر النيل لا تقل جمالاً وإبداعاً من هذه الناحية عن قصة تطور غيره من مخلوقات الجماد والحيوان !

ومع ذلك ففيضان النيل أعقد مما رسمناه . والنيل يمتاز على غيره من الأنهار فى أن له منبعين يفيض كل منهما على طريقته الخاصة . فالمنبع الاستوائى يجرى بالمياه جرياناً مطرداً ، وتصل مياهه إلى مصر فى انتظام عجيب ، وعليه تعتمد الزراعات الصيفية فى الوقت الحاضر إلى حد كبير ، بل لولاه لجف مجرى النيل فى مصر خلال جزء من العام ، ولتعذر بذلك استخدام النهر كشريان للمواصلات فى غير أيام الفيضان الحبشى . . . والواقع أن جريان المياه من المنبع الاستوائى يعتبر نوعاً من الفيضان له أهميته الخاصة فى حياة مصر فى العصور القديمة والعصر الحديث ؛ فهو الذى مكّن للحياة من أن تستمر فى مصر يالعة فى أيام القيظ والتحاريق ، وهو الذى مكّن للمواصلات من أن تجرى بين الدلتا

والصعيد والنوبة عن طريق مجرى النهر وبانتظام طوال العام ، وعليه يعتمد التوسع الزراعى الصيفى فى مصر الحديثة ، وستبقى له أهميته الخاصة فى مشروعات الرى فى قابل الأيام .

فأما الفيضان الآخر فذلك الذى يأتى من الحبشة . وهو يختلف عن الفيضان الاستوائى اختلافاً ظاهراً ، ولكنه فى الحقيقة يكمله ويتممه . فالحبشة تعطينا الماء الغزير الذى يعادل سبعة أثمان ماء النيل كله أو يزيد ، وهى تعطينا الغرين الذى هو أصل نعمة التربة وسر غنى مصر ومجدد خصب هذه الأرض الطيبة التى غالبت الزمن فغلبته ، واحتفظت بقوتها وإنتاجها على مر السنين وتعاقب القرون . والحبشة فوق ذلك تعطينا هذا الماء والغرين فى أنسب الفصول ، ففيضانها يبلغنا فى أواخر الصيف بعد أن يكون القيظ المبكر وشمس الصيف المرتفعة قد جففت تربة مصر وشققت سطحها ، وأماتت ما ينمو عليها من أعشاب وحشائش تمتص خيرها ولا تفيد شيئاً ، ونقتها من الحشرات والآفات إلى حد بعيد ؛ وبذلك يصل الفيضان فى وقت مناسب ، فيكسو الأرض بطبقة جديدة من الغرين تغذى التربة وتعدها لفصل الإنبات الجديد فى الخريف . والطريف أن هذا الفيضان ينحسر عن الأرض فى أكتوبر ونوفمبر ، أى فى أنسب الأوقات لزراعة محاصيل الشتاء ، وهى القمح والشعير وبعض البقول والأفوال ، تلك النباتات التى تنمو وتجود بطبيعتها فى هذا القسم من العالم القديم . وبعد أن تنبت تلك المحاصيل الشتوية فيما انجاب عنه النهر من جنبات قد غذاها ماؤه وطيب ثراها غرينه ، تأتى أمطار الشتاء المصرية فتتعهد النبت بالغيث والإرواء ، حتى يحين الحصاد فى أواخر الربيع ، فتجدد الدورة من جديد . ونستطيع أن نتصور ما كان يحدث لو أن فيضان الحبشة وصل فى أوائل الصيف مثلاً وانجاب عن الأرض فى منتصف الصيف أو أواخره ؛ إذن لكان الصيف كله فصل حرارة رطبة لا تستقيم معها صحة ولا ينبعث معها نشاط . . . بل إذن لما جاء فى أعقاب الفيضان فصل معتدل ممطر يكمل عمل الفيضان ويتم نعمته على الزرع والضرع جميعاً . ونستطيع كذلك أن نتصور ما كان يحدث لو أن ذلك الفيضان الحبشى جاء شتويًا أو ربيعيًا كما هى الحال فى فيضان بعض الأنهار الأخرى كدجلة والفرات ، وهما كثيراً ما يفيضان على جانبيهما نتيجة لذوبان الثلوج فوق جبال إيران وكردستان فى الربيع ؛ إذن لداهمت مياه الفيضان

حقول مصر المحصورة بين هضبتين وهى مكسوة بالزرع والنبات قبل موسم الحصاد ، ولتكررت فى مصر تلك المأساة التى تكرر حدوثها فى تاريخ العراق الأدنى من انقلاب الفيضان إلى طوفان يغرق كل شىء ، مع فارق واضح بين مصر والعراق وهو أن وادى مصر ضيق محصور يسهل على المياه اكتساحه اكتساحاً منظما من حافة الهضبة إلى حافة الهضبة * . بل إننا نستطيع أن نتصور ما كان يحدث لو أن فيضان الحبشة لم يختلف عن فيضان الهضبة الاستوائية ، فجاء مطّرداً طوال العام ؛ إذن لكان فيضاناً متوسطاً معتدلا ، ولما بلغ أطراف الوادى ، بل ولا غمر من الأرض إلا مساحة ضئيلة محدودة يضيق فيها مجال الحياة أمام المصريين ، ولاتيسر أسباب الإرواء لاسيما فى العصور الغابرة وقبل أن تتقدم وسائل الرى الحديثة . . . وهكذا نستطيع أن نتصور احتمالات كثيرة مختلفة يتغير معها وجه التاريخ بسبب تغير أحوال الفيضان . . . وربما كان ختام هذه الاحتمالات وأبعدها أثرا أن الفيضان الحبشى لو لم يكن فى صورته المعروفة لفقدت الحياة المصرية مقوماً من مقوماتها الأولى ، ولفقد المجتمع دافعاً من دوافع الوحدة الأساسية فيه ؛ ذلك أن الفيضان كان يمثل مصدر خطر مشترك ومصدر فائدة مشتركة بالنسبة للمصريين الذين اضطروا عندما انحدروا من حافة الصحراء ليعمروا قاع الوادى إلى أن يقيموا كومات كبيرة من التراب ليبنوا قراهم على قممها فوق مستوى الفيضان . وهذا فى حد ذاته عمل ضخم استلزم جهداً كبيراً وتعاوناً منظما بين أفراد المجتمع القروى . وقد علّم خطر الفيضان سكان القرية أن يعيشوا متكاتفين متعاونين ؛ إذ لم يكن فى استطاعة كل فرد أو أسرة أن تقيم تلا مستقلا من التراب تبنى فوقه بيتها ، بل كانت الضرورة تقضى بأن تتضافر الجهود ، فكلما كان التل كبيراً كان ذلك أدعى إلى الاعتصام والأمان . وكذلك تضافرت جهود المجتمع فى إقامة الجسور وحراستها أيام الخطر ؛ إذ ليس ينفع فى ساعة الخطر أن يحاول كل فرد أن ينجو بنفسه ، فنحن فى مصر (لا سيما فى الدلتا) نعيش فى أرض منبسطة ، ليس فيها من الجبال ما قد يعتصم به الأفراد ؛ والخطر فى مصر لا بد أن يُواجَهَ ، ولا سبيل إلى الفرار من وجهه . لذلك وجد المجتمع نفسه مضطرًّا منذ بداءة

* حادث الطوفان المعروف قد ثبت الآن وقوعه فى أرض العراق بأدلة أثرية لا تكاد تقبل الجدل . ولعلنا أن نعود إليه يوما فى مقال ما .

الاستقرار والحياة فى أرض مصر إلى أن يتعاون أفراده وتتضافر جهودهم . وكان الفيضان الموسمى فى ذلك كله الباعث الأول لروح الوحدة بين أفراد المجتمع . ومع ذلك لم يكن هذا الفيضان مصدر خطر فحسب ، وإنما كان كذلك مصدر خير وبركة ... ولكن النفع لا يتحقق إلا بمجهود مشترك ، بل إجماعى ، يتعدى جهد الفرد إلى جهد الجماعة . فماء الفيضان ، إن ترك وشأنه ، يطغى على الأرض فى غير نظام ، وقد يجرف التربة وينقلها تبعاً لتغيرات مجرى النهر ومسالك تياراته من عام لعام . أما إذا أريد ضبط النهر وضمان تغذية الأرض وتوزيع الغرين عليها بانتظام ، بحيث يشمل أكبر مساحة ممكنة ، فإن من الواجب أن تتضافر الجهود فى إقامة الجسور والحواجز التى تحدد الحياض ، والترع والقنوات التى تأخذ الماء إليها من النهر حاملا الغرين ثم تصرفه عنها بعد أن يكون قد أرسب ما فيه من غرين وخير . وهذا العمل هندسى يحتاج إلى جهد كبير وتنظيم لا حد له ، ولا طاقة به لفرد أو مجموعة صغيرة من الأفراد ، وإنما ينبغى أن يتعاون أهل الاقليم جميعاً ، بل أهل القطر جميعاً فى النهاية ، لتنظيم جريان النهر ، وتقسيم الوادى ودلتاه إلى أحواض ، وإجراء الماء والغرين وتوزيعهما بين الناس بالعدل والقسطاس . وهكذا قضت المنفعة المشتركة أيضاً والصالح العام بأن تتضافر جهود المجتمع وتنظم فى سبيل الإفادة من مياه الفيضان ، التى جمعت بين الناس فى حالتى الخطر والنعمة ، وفى الضراء وفى السراء على حد سواء .

والحق أننا نستطيع أن نستطرد إلى نواح أخرى كثيرة من دراسة هذا الفيضان وآثاره الظاهرة والخفية فى حياة المصريين وحضارتهم التاريخية ؛ ولكن ما عرضنا له يكفى لأن يبرز كيف أن الإنسان كان منذ البداءة على اتصال وثيق بالطبيعة التى يعيش فى كنفها والنهر الذى يتغذى منه ويحيا فى حماه ، وكيف أن ظاهرة الفيضان بنوع خاص لعبت دوراً أساسيًّا فى حياة النهر من جهة وحياة السكان من جهة أخرى ؛ وهى من أجل ذلك تستحق أن يلتفت إليها وأن يتناولها أبناء مصر بالبحث والتحليل ؛ ويكفى أنها عاصرت الحضارة فى مصر أو عاصرتها الحضارة ، وامتدت معها سنة سنة وعاماً عاماً ، خلال قرون قد تبلغ الستين أو السبعين ، كانت فى كل سنة منها تجدد الحياة والخصب فى الطبيعة ، وتبعث الوحدة والتضامن وروح الهمة والنظام بين جموع المصريين ؛

وهى وإن تسببت فى بعض الأضرار ، وإن صاحبها بعض الخوف فى بعض السنين ، فإنها مع ذلك لم تطغ على الحياة ، ولم تقطع حبل الاستقرار والمدنية المستقرة فى وادى النيل على مر العصور . ولكن الشىء الذى يخشى منه والذى ينبغى أن يلتفت إليه ، أن يكون الزمن قد سبقنا شيئاً ما خلال هذا القرن الأخير ، وأن تكون الظروف قد تغيرت من حولنا ، ولم نشعر بما ترتب على تغيرها من انقلاب فى صلات السكان بالنهر ، وفى استجابتهم لدوافع الخطر المشترك والنفع المشترك اللذين يترتبان على ظاهرة الفيضان . فقد بقيت مصر إلى مائة وعشرين سنة خلت ، وهى تعتمد على رى الحياض ، وتدع النهر يفيض على جانبيه فى شىء من الحرية المنظمة ليغمر هذه الحياض ويبلغ حافة الصحراء . وكانت الأراضى جافة فى معظم أشهر السنة ، مما يزيد من قدرتها على تحمل طغيان الماء وتصريف كميات هائلة منه فى جوف الأرض . أما منذ عهد محمد على فقد أخذنا بأسباب الرى الدائم ؛ وأدخل هذا عاملا جديداً له خطره البالغ فى حياة الريف المصرى . فالحياض أخذت تتلاشى وتختفى رويداً رويدا ؛ والمجال ضاق أمام مياه الفيضان ؛ ولم يكن بدٌّ من أن تجرى تلك المياه بين حواجز النهر وشواطئه ، حتى تبلغ البحر فى ارتفاع شديد سريع ، وتحت حراسة لا تغفل بالليل ولا بالنهار . والحقول ذاتها قد أشبعت بالرى طول العام ، وارتفع مستوى المياه الجوفية فى باطنها ، ولم تبق لها تلك القدرة القديمة على استيعاب مياه الفيضان عندما يرتفع بها مجرى النهر فى أواخر الصيف وأوائل الخريف . لذلك كله أخذ خطر الفيضان يزداد فى العهد الحديث ، واتخذ صورة جديدة مخيفة حقًّا ؛ لأنها تختلف عن تلك الصورة القديمة التى ألفها المصريون وألفتها حياتهم المصرية خلال قرون وقرون . وزاد من شدة الخطر فى العهد الحديث أن القرى لم تعد تبنى فى عهدنا الحديث فوق كومات من التراب كما كانت الحال أيام رى الحياض ؛ وإنما تركت تلالها تتلاشى وسط الحقول ، وأزيل بعضها لتسميد الزراعات ، وبنيت أطرافها الحديثة وما يحيط بها من عزب وملحقات فى مستوى الأرض الزراعية ، مما يجعلها عرضة للغرق فى حالة انكسار الجسور .

وهكذا تغيرت الصورة فى عهدنا الحديث ، وأصبح للفيضان خطره البالغ . ولئن كان أجدادنا الأسلفون قد تحايلوا على الفيضان وغلبوه لأن الطبيعة

كانت فى جانبهم ، فإننا الآن نعيش فى خطر حقيقى . وقد ضيّق علينا مجال الحيلة أننا أخذنا بنظام الرى الدائم وحوّلنا الحياض إلى حقول ترويها الترع والقنوات وتكسوها الزراعات فى فصل الفيضان فلا يمكن أن نغمرها بالماء الزائد . كما زاد الخطر من حولنا أن قرانا أصبحت تقام فى مستوى الأرض الزراعية بدلاً من الكومات القديمة المرتفعة ، بل أصبح بعضها يقام ويمتد على ضفاف النهر وجسور الترع بعد أن كان كثير من القرى فى الصعيد مثلا يقام عند حافة الصحراء . كذلك طرقنا الزراعية وغيرها لم تعد ترفع فوق جسور عالية بعد أن كانت قديماً تسير فوق جسور الحياض . وهكذا أصبح كثير من مرافق الحياة فى مصر الحديثة فى متناول الخطر إن حدث ، لا قدر الله ، وتصدّعت الجسور أو زاد الرشح . بل إن هناك خطراً آخر جديداً يمس حياتنا فى الصميم ؛ فقد ترتب على تشبع الأرض بالرطوبة وارتفاع مستوى المياه الجوفية بسبب الرى الدائم ، أن أصبحت أرض مصر أكثر حساسية بالنسبة للرشح أيام الفيضان ، لا سيما فى سنواته العالية ؛ وبذلك ازداد انتشار المستنقعات والمساحات التى تكسوها مياه الرشح ؛ مما ينشر الأمراض ويضر بالصحة العامة من جهة ، ويضعف المزروعات ويقلل من غلة الفدان ويهبط بالمستوى العام للإنتاج القومى من من جهة أخرى . وإذا نحن تركنا الحال تسير على ما هى عليه فإن الخطر سيتفاقم وأثره يمتد ويتشعب باستمرار . ولن ينقذنا من هذا الخطر الذى نحن مسوقون إليه سوقاً إلا أن نبحث عن بعض نواحى الطبيعة وأسلحتها فنغالب بها الفيضان على نحو ما درج عليه أسلافنا . فليس ينفعنا ولا يجدينا أن ننتظر البلاء حتى يقع ، ولا أن ننتظر ارتفاع النهر ، فنهبّ إلى الجسور نحرسها ونقويها ؛ فالفيضان يأخذنا بالضرر والإضرار عن طريق الرشح ، ولو لم تغمرنا مياهه . والواجب أن نسير فيما نحن بسبيله من دراسة مشروعات اتقائه والوقاية منه ؛ تلك المشروعات التى تقضى بالتخلص من بعض المياه الزائدة فى منخفضات الصحراء المجاورة ، وأهمها منخفض وادى الريان فى جنوب الفيوم ؛ أو التى تقضى ببناء بعض الحواجز وخزن المياه الزائدة فى بعض جهات مجرى النهر حيث لا تقوم زراعة كما هى الحال عند شلالات النوبة العليا فى شمال السودان ؛ أو غير ذلك من المشروعات التى يصح أن تهدينا إليها دراسات المهندسين .

وبعد، فإن حديث الفيضان وأثره فى تاريخنا وحضارتنا وخطره فى مستقبلنا حديث يمكن أن يتشعب ويطول، وأن يتعدى الباحثين إلى إثارة اهتمام المواطنين جميعاً. فقصة هذا الفيضان جزء لا يتجزأ من قصة الحياة والمدنية فى مصر. ولقد استطاع أسلافنا الأقدمون، الذين أنشأوا الحضارة والمدنية الزراعية المستقرة على ضفاف النيل، أن يتنبهوا للخطر فغالبوه حتى غلبوه، ثم حوّلوه عن أصله ووجهوه وجهة الخير والمنفعة، بل وجهة الحق والجمال. ولكن الطريف فى هذا الجهاد أن الإنسان استجاب للطبيعة كما استجابت الطبيعة للانسان؛ فكما غلب الإنسان النهر فضبطه وهذّبه، وقوّمه وصوّبه، وأقام له الجسور والحياض والحدود، فإنه عاد فاستجاب فيما بينه وبين نفسه لنوازع الطبيعة ودوافعها، فقدس النهر واحتفل بفيضانه، وقدم القرابين لهذا الفيض الزاخر، يستهويه تارة، ويستهديه تارة أخرى؛ وسارت الطبيعة والإنسان كما يسير حفل الخليقة فى اتساقه البديع؛ وشاءت حكمة الله بذلك كله أن تجعل من مصر كنانة الله فى أرضه، وأن تخرج من أبناء النيل أعرق أمة عرفها التاريخ.

وإذا كانت معجزات الاستجابة المتبادلة بين الطبيعة والإنسان قد حدثت فى الماضى، فما أحراها أن تتكرر فى المستقبل، وإنْ فى صور وأوضاع جديدة. ونحن فى مصر أمة تمتد فيها ذكريات الماضى لتتصل بآمال المستقبل؛ بل نحن فى مصر أمة شديدة الحساسية قوية الاستجابة، قد حذقنا منذ القدم أن نقف فى وجه الخطر، وألا نجفل منه، وأن نغالب الطبيعة حتى تستحيل شدتها رخاء، وحتى تستحيل ثورتها رضا ورحمة. وإذا كان فيضان النيل فى الماضى قد استحال بشىء من تفتق الحيلة من بلاء لا دافع له إلى عطاء لا حد له، فما أحراه فى المستقبل أن ينقلب، بشىء من الدراسة والتدبر والحذر وبعد النظر، ثم بشىء من التضحية والإنفاق... ما أحراه أن ينقلب من خطر نرهبه ونخشاه، إلى خير نرمقه ونرجوه. وعندئذ يتم الله نعمته على مصر، ويبدّل أهلها من عسرهم يسراً، ومن خوفهم أمناً وسلاماً.

سليمان حزين